## المبحث الأول

# جذور الفكر الجغرافي الإقليمي الحمداني

في مقاله الرائع الرائد «هذه الجغرافية» المنشور في عام ١٩٥٧ [١] أوضح «حمدان» بجلاء أنه أساساً جغرافي «إقليمي»..ولسوف يتبين لنا من استعراض أفكار «حمدان» الجغرافية ومناهجه البحثية أنه كان من أشد المؤمنين بأن الهدف الأخير للبحث الجغرافي هو الإقليم Region والإقليمية Regionalism .

ولقد كانت أبرز خصائص التفكير الجغرافي عندما كتب «حمدان» مقاله في أواسط خمسينيات القرن العشرين هو ذلك الاهتمام الملتهب بالسؤال البسيط عن «ماهية الجغرافية»، والذي اعتبره رد فعل طبيعي لحالة البلبلة الفكرية والخلط اللذان رانا علي معظم الأعمال الجغرافية في تلك الفترة وما قبلها، رغم أن الكل كان يعلم في تلك الفترة - وحتى اليوم - أن الجغرافيا علم يدرس ظاهرات عديدة قد تختلف تماماً، بحيث يصبح موضوعه غير متجانس، بل متنافر يجمع الأضداد، وأن هذا العلم يجمع مادته الخام من كل العلوم «علي الإطلاق» [٢].

وقد وجد الجغرافيون أنفسهم وعلمهم أمام اتهامين خطيرين رئيسين أولهما تساءل عن كيفية استطاعة الجغرافيا - كعلم واحد - أن يدرس في وقت واحد كل الظاهرات المتنافرة «كالصخور والقبور، والسكان والأديان، والسلالات والعادات، والغابات والغابات» [٣] فعلم كهذا لا يمكن أن يكون علما متجانساً، وإنما علمٌ يفتقد الوحدة الداخلية الأساسية، أما الاتهام الثاني فينفي وجه الأصالة والجدة عن الجغرافيا كعلم لأنها تستمد مادتها الخام من العلوم الأولية بلا استثناء، كما ينكر عليه تميزه عن العلوم الأخرى، لأن اعتماده عليها ينفي عنه استقلاله وتفرده كعلم، ومن ثم يصبح علماً عالة علي غيره من العلوم الأخرى، بل وعلم «طفيلي متلصص» فالعلم الصحيح كالدولة السليمة يقوم علي أساسين: الوحدة الداخلية بين أجزائه المختلفة، والاستقلال الداخلي

(١) جمال حمدان - هذه الجغرافيا - مرآة العلوم الاجتماعية - العدد الأول - ديسمبر - ١٩٥٧.

(٢) المرجع السابق - ص ٢٧ .

(٣) السابق - المكان نفسه .

عمن سواه [١] .

وللدفاع عن علمهم كان من الطبيعي ـ لرد هذين الاتهامين وغيرهما ـ أن يطغي الاهتمام بين الجغرافيين بفلسفة المادة ومسائلها المنهجية «الميثودولوجيا» على المادة نفسها، وقد تزعمت المدرسة الجغرافية الألمانية وعلي رأسها «ألفرد هتنر Alfred Hittner»(١٨٥٩ـ١٩٤١) « ذلك الجدل المنهجي، والذي توجه بكتابه :

«Die Geographe Ihre Geschichte.Ihre Wesen und Ihre Methoden»[٢].

ويتلخص منهج هتنر في أن الجغرافيا هي دراسة العلاقة بين الطبيعة والإنسان في إطار إقليمي، وهي تهدف بذلك أساساً إلى دراسة الأقاليم من حيث الوصف والتفسير والتحليل [٣] .

ولم تكن الجغرافيا عند «هتنر» هي علم الأرض فحسب بل علم «كورولوجية سطح الأرض Chorological Science of Earth's Surface حيث كانت «الكورولوجيا» عنده تعنى التباين الإقليمي، لأن منهجه الجغرافي كان يتمثل في دراسة العلاقة بين الطبيعة والإنسان في إطار إقليميّ، فعلم الجغرافية ـ حسب رأيه ـ ينقسم إلى جغرافية عامة تختص بتوزيع الظاهرات الجغرافية على سطح الأرض، وجغرافية خاصة تختص بدراسة الأقاليم الجغرافية [٤] .

وقد قال «هتنر» أن موضوع الجغرافيا المتميز من العصور القديمة وحتى الآن ـ عام ١٨٩٨ ـ كان معرفة مناطق سطح الأرض حسب اختلاف بعضها عن البعض الآخر

(١)السابق ـ المكان نفسه .

(٢)السابق ـ المكان نفسه .

(٣)أحمد محمد عبد العال ـ دراسات في الفكر الجغرافي ـ دار فكرة ـ القاهرة ـ ٢٠٠٩ ـ ص ٢٦ .

(٤)محمد صبحي عبد الحكيم ـ دراسات في الجغرافيا العامة ـ ط١ ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ ـ ص١٥.

مع اعتبار الإنسان جزءا مكملا لطبيعة المنطقة، كما عاد وكتب عن «التوزيعات الجغرافية للأرض» أو «علم المناطق والأماكن، وما يختص باختلافاتها وعلاقاتها المكانية» أو «علم سطح الأرض من حيث اختلافاتها المكانية» حيث أكد أن هدف وجهة النظر التوزيعيّة في الجغرافيا هو معرفة سمات الأقاليم والأماكن من خلال إدراك وجودها معا وعلاقاتها ضمن المظاهر المختلفة للواقع، كما تظهر مُرتّبة في شكل قارات أو مناطق كبيرة وصغيرة أو أماكن [1].

كذلك أوضح «هتنر» أن الجغرافي لا يستطيع أن يجد وحدة أي جزء معين من سطح الأرض بمجرد النظر إلى مظهره الخارجي - لاندسكيبه - وإنما بدراسة عناصر تكوينه وتفهّم مكوّنات هذه العناصر، ويتحقق ذلك بالتعرّف على التكوين الجغرافي المعقد لمختلف النظم التي تكوّن ذلك الجزء من ناحية - كالأنهار ونمط المناخ مثلا - ثم بإيجاد الترابط السببيّ الإجمالي «الصورة الإجمالية» Zusammenhang لمختلف هذه الظاهرات من ناحية أخرى، ومن ثم يكون هتنر قد أعطى أهمية للدراسة الإقليمية حين أظهر أن مادتها تستمد من الدراسات الأصولية [2].

ولقد ترددت أصداء فلسفة هتنر الإقليمية في كتابات كل من «شيزولم Chisholm» و«هربرتسون» و«ماكندر» في بريطانيا، و«فنمان» Fenneman و«ساور Sauer» في الولايات المتحدة الأمريكية، بل ووصلت هذه الأصداء إلى اليابان، وكان «ماكندر Mackinder» يرى أن الدراسة على أساس الأقاليم تعتبر اختبارا أكثر دقة لمنطق المناقشة الجغرافيّة من الدراسة على أساس نوع الظاهرات [3].

(١) ريتشارد هارتشورن - نظرة في طبيعة الجغرافيا - ترجمة: عبد العزيز آل الشيخ وعيسى موسى الشاعر - دار المريخ - الرياض - ١٩٨٨ - ص ١٦.

(٢) حسن طه النجم - دراسة في الفكر الجغرافي - عالم الفكر - المجلد الثاني - العدد الثاني - يوليو سبتمبر - الكويت - ١٩٧١ - ص ١٣٠.

(٣) ت. و. فريمان - الجغرافيا في مائة عام - ترجمة: عبد العزيز طريح شرف - آفاق عربية - بغداد - بدون تاريخ - ص ٦٩.

كما كتب كل من «س.و. وولدردج S.E.Wooldridge» و «جوردون إيست W.G.East» كتابهما الشهير «[1]» The Spirit and Purpose of Geography، والذي نشر لأول مرة عام ١٩٥١ وترجم إلي اللغة العربية بعنوان الجغرافيا مغزاها ومرماها [2] وقد خصص المؤلفان الفصل الثامن من كتابهما للجغرافيا ونظرية الأقاليم.

وللإجابة عن التساؤل عن ماهية الجغرافيا استعرض «حمدان» أربع تعريفات شهيرة لعلم الجغرافيا قبل أن يدلي برأيه ويجيب عن التساؤل المطروح، وهذه التعريفات هي:

**التعريف الأول: الجغرافيا علم كوكب الأرض**

وقد اعتقد معتنقوه بأن الجغرافيا تدرس الأرض ككل أو ككوكب، أي من وجهة نظر فلكية، وهذا - في رأي حمدان - خطأ واضح لازال أثره باقياً في شكل الجغرافيا الفلكية أو الرياضية «المزعومة» ، التي لم يعتبرها جغرافية وإنما جزء من العلوم الفلكية، فاهتمام الإنسان بالأرض لا ينصب علي ناحيتها الفلكية ككوكب، بل علي ما يوجد فوق سطح هذه الأرض من ظاهرات، ومن ثم يكون المدلول الحرفي للكلمة اسم علي غير مسمى [3].

**التعريف الثاني: الجغرافيا علم وصف الأرض**

ويكفي أن نذكر كلمة الجغرافية الوصفية - كما كتب حمدان - فالوصف ليس بعلم لأنه يرتد بالجغرافيا إلي جغرافية الرحلات والطبوغرافيا أو «جغرافية الرؤوس والخلجان بما فيها من غرائب الأقطار، رغم أن الوصف أساس لكل علم لكونه يقدم المادة الخام، إلا أنه - وحده - لا يكفي لأنه سطحي أجوف غير تحليلي تعليلي، ولا يعطي

(١) S.E.Wooldridge and W.G.East The, Spirit and Purpose of Geography, HUCHINSON& University Library, London, 1976.

(٢) س.و. وولدردج و جوردون إيست - الجغرافيا مغزاها ومرماها - ترجمة: يوسف أبو الحجاج و محمد محمود الصياد - الألف كتاب رقم ١٧٨ - مكتبة الشرق - القاهرة - بدون تاريخ نشر .

(٣) جمال حمدان - هذه الجغرافيا - مرجع سبق ذكره - ص ٢٨.

وحدة داخلية للظاهرات المختلفة، كما أنه يدعو إلي الذاكرة وليس إلى العقل [1].

### التعريف الثالث: الجغرافيا علم العلاقات

أي العلاقة بين البيئة والإنسان، وهو تعريف رأي حمدان أنه أكثر خطراً من سابقيه، فالواقع أن الجغرافيا منذ أن اتخذت مبدأ السببية Causality العلمية أساساً لها كان عليها أن تهتم بالعلاقات السببية بين ظاهراتها المختلفة، وحين ظهر الاتجاه نحو استبعاد الإنسان من الجغرافيا اشتد الإقبال علي فكرة العلاقات Rlationships لأنها الضمان الوحيد لإعادة الإنسان إلي حظيرة الجغرافيا [2].

ولقد بدأ هذا الاتجاه علي يد «فردريك راتزل» Ratzel (١٨٤٤ـ١٩٠٤) وإن لم يعرَف هو الجغرافيا بعلم العلاقات، وقد تأثر «راتزل» بنظرية التطور التي وضعها «تشارلز دارون» نتيجة لدراساته عن العلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية، وقد أعاد «راتزل» للإنسان مكانته المركزية في الدراسات الجغرافية، وكان المحفز الأول الذي أدت كتاباته إلي تنامي الاهتمام بالجغرافيا البشرية في أوربا وأمريكا، ولذلك فهو يعتبر مؤسس الجغرافيا البشرية، التي عرض آراءه فيها في كتابيه: «جغرافية الإنسان» و«الجغرافيا السياسية» التي يعتبر أيضا مؤسسها الفعلي، وفي الكتاب الأول درس «راتزل» أسس تطبيق الجغرافيا علي علم التاريخ، مطبقاً ذلك علي تطور المجتمعات البشرية في محيطها الجغرافي، ثم درس توزع البشر علي سطح الأرض، وعلاقة هذا التوزع بالظروف الجغرافية، ووضع بذلك البذرة الأولي للمدرسة الجغرافية الحتمية Determinism عندما خلص إلي أن الإنسان من صنع الطبيعة.

وقد ظهر كتاب جغرافية الإنسان أو الجغرافيا البشرية Anthropogeography في عام ١٨٨٢ واعتبر حدثاً مهماً في تاريخ علم الجغرافيا، وكان له تأثير مباشر على تطور

(١) المرجع السابق ـ ص ٢٩ .

(٢) السابق ـ المكان نفسه.

المنهج الجغرافي لنجاحه في الربط بين العلوم الطبيعية ودراسة الإنسان (من حيث سلالاته وأعماله) وبه اعتبر «راتزل» واضع الأسس العلمية للجغرافيا البشرية الحديثة، وكان هدفه إرساء قواعدها على أسس علمية.

وقد ارتقى «راتزل» بجغرافية الإنسان «الأنثروبوجرافيا» إلى مستوى النظام العلمي وذلك بتنظيم ظاهراتها وتأسيس أفكارها وإيجاد الارتباط بين النتائج التي يمكن التوصل إليها، ومن ثم جاء على يديه أساسا رد اعتبار الجغرافيا البشرية إذ كانت دراساته رد فعل لمغالاة بعض الجغرافيين وتعصبهم للجغرافيا الطبيعية.

أما الكتاب الثاني فقد كان مسرحا لعرض فلسفة «راتزل» الحتمية، عندما اعتبر الدولة كائناً حياً، يشغل موضعاً معيناً من سطح الأرض، ثم ينمو ببطء حتي يبلغ مرحلة الكمال، ثم بعد ذلك يبدأ في الضمور، ولهذا فهو يحتاج لمجال حيوي ويرتبط مصيره بطبيعة وخصائص منطقته.

وقد اعتقد «راتزل» أن هناك ثلاث مجموعات تحكم الإنسان وتؤثر في تطوره وهي: الموقع، الحيز، والحدود، وعلى هذه الأمور قامت أفكاره في الجغرافيا السياسية والتي نشرت لأول مرة عام ١٨٩٧ وتتمحور حول اعتبار الدولة تجمع مكاني على سطح الأرض يضم مجموعة بشرية ذات تنظيم محدد، أي أنها عبارة عن قطعة بشرية فوق جزء من سطح الأرض، ومن هنا نشأ مفهوم « المجال الحيوي Lebensraum » .

وقد طوّر «راتزل» فكرة الظهير «Hinterland» وصنفه إلى خمسة أنماط هي: الظهير الطبيعي، الظهير السياسي، ظهير السوق، ظهير المنتجات، وظهير المرور، ويعتبر أول من صاغ فكرة «المظهر الأرضي ـ اللاندسكيب ـ الحضاري Cultural Landscape» الذي يعنى في نظره لاندسكيباً تاريخياً طالما أنه يسجل مراحل تاريخية متتابعة للاستيطان البشرى.

وقد صنع «راتزل» أبرز معالم تطور الفكر الجغرافي في أواخر القرن التاسع عشر، إذ وضع أساس الجغرافيا البشرية وكانت معالجته لها على أساس أصولي لا على أساس

إقليمي، كما أكد أن الجوانب البشرية من علم الجغرافيا يمكن أن تخضع للدراسة الأصولية المنهجية شأنها في ذلك شأن الجوانب الطبيعية، لكنه أسرف في إخضاع الإنسان ونشاطه البشرى لتأثيرات البيئة الطبيعية وبذلك كان الرائد الأول لمدرسة الحتم البيئي Environmental Determinism الحديثة، [١].

ولقد استمر هذا التيار جارفا بعد «راتزل» حتى جاء كل من «فلير H.Fleure» وهارلان باروز H.Parrows بتعريف «الإيكولوجيا البشرية Human Ecology وتعتبر أقاليم «فلير» البشرية من أبرز أنماط الأقاليم البشرية العامة، التى تعكس مدى استجابة الإنسان لظروف بيئته، رغم ما تحمله هذه الأقاليم من «نكهة حتمية» تضاءلت حدتها مع تزايد تأقلم الإنسان مع هذه الظروف [٢].

وليست فكرة «فلير» عن التقسيم الإقليمي إلا مجرد فكرة كانت لها أهميتها في وقت من الأوقات، وقد كان من الصعب توضيحها بالخرائط، ولذلك لم ترسم لها خرائط كافية، ومع ذلك فإنها كانت تمثل عمقا في النظرة إلى درجة ملائمة أو أفضلية المناطق المختلفة للحياة البشرية، وهي تشتمل كذلك على أساس طبيعي دقيق وتعترف بإمكان حدوث تغيير في أية منطقة من المناطق نتيجة لتغير الظروف [٣].

ولقد أوضح «فلير» أن التغير هو الشيء الثابت الوحيد على سطح الأرض، ويمكن إضافة أن هذا التغير قد يكون تغيرا رأسيا، كما قد يكون تغيرا أفقيا، والتغير الرأسي هو التغير الزمني، حيث تتبدل أوضاع منطقة ما عبر الزمن، أما التغير الأفقي فيتمثل في اختلاف المناطق عن بعضها في وقت واحد [٤].

وقد تزعم «باروز» هذا التيار وقال بأن تلاؤم الإنسان مع بيئته لا ينبثق من الطبيعة

(١) أحمد محمد عبد العال - دراسات في الفكر الجغرافي - مرجع سبق ذكره - ص ٥٥ .

(٢) المرجع السابق - ص ٥٦.

(٣) السابق - ص ٥٧.

(٤) السابق - ص ٥٨.

وإنما من الاختيار البشري، وأكد بأن العلاقة بين الإنسان والأرض من أجل الحصول علي مقومات حياته هي الأشد مباشرة وقوة، وأن جل العلاقات الأخرى تنبثق من تلك العلاقات. وعبر عنه من خلال تعريفه للجغرافيا في عام ١٩٢٣ بأنها « معالجة العلاقات الحميمة بين الإنسان وبيئته لأنها علم «الإيكولوجيا البشرية» [١].

والغريب ـ كما لاحظ حمدان ـ أن الاهتمام بالعلاقات في ألمانيا ـ مهد الجغرافيا الحديثة عامة ومهد هذا التوجيه خاصة ـ لم يدم سوى عدة عقود، انقرض تماماً من كتابات الألمان الجغرافية المنهجية، في الوقت الذي انتشر فيه خارجها انتشارا كبيراً، رغم أن المدرسة الجغرافية الألمانية قد أثبتت فساد هذا التعريف، وإن يكن الاعتراض ليس علي دراسة العلاقات في الجغرافيا، وإنما علي اعتبار هذه العلاقات وحدها موضوع العلم الوحيد [٢].

وكان حمدان يري أن هناك أربعة انتقادات رئيسة لتعريف الجغرافيا كعلم علاقات، وهي:

١ ـ أن هذا المذهب يوجد بطبيعته تعارضاً لا مفر منه بين البيئة والإنسان، فباعتبار البيئة هي العامل Factor الجغرافي فإن الجغرافيا تصبح فقط تأثير هذا العامل على الإنسان، أي تصبح جغرافية التأثيرات وجغرافية الضبط التي تتألف من سبب ونتيجة، فعل ورد فعل، أي ضوابط طبيعية واستجابات بشرية، وهذا يعنى البدء بفكرة قَبْلية من الحتم البيئي الساذج، والبدء باعتبار العوامل الطبيعية لا يمكن أن يؤدي إلا إلي احتمالات فقط، أما التقرير النهائي فمتروك أخيراً للإنسان [٣].

ورغم ظهور المدرسة الإمكانية Possibilism رداً علي المدرسة الحتمية، إلا أن كلا منهما مدرسة إيكولوجية، رغم التعارض الواضح بينهما، ومن ثم فكل منهما يوجه دارسه بالبحث عن مثل تلك العلاقات وإيجادها، لأن النجاح في ذلك يتمثل في إبراز

(١)السابق ـ ص ٥٩.

(٢)جمال حمدان ـ هذه الجغرافيا ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٠.

(٣)السابق ـ المكان نفسه.

تلاؤم بيئي لا نفيه مما يسلب هذا الباحث موضوعيته [١].

والجغرافيا ـ كعلم للعلاقات ـ تصبغ عنصر النسبية بالغموض، وهو الأساس في فكرة السببية العلمية، فإذا كان بعض غلاة الحتم الجغرافي قد أبرز هذا الخطر، فإن رد الفعل بين بعض غلاة الحتمية كاد يؤدي إلي خطر أشد وأنكي، ألا وهو نكران السببية العلمية بإنكار أية فاعلية للبيئة الطبيعية [٢].

٢ ـ إذا كانت الجغرافيا علم العلاقات والإيكولوجيا البشرية فإنها منطقياً لا تهتم بأي من الظاهرات الطبيعية والبشرية إلا في مدى علاقاتها ببعضها، وحيث أن الجغرافيا البشرية هي بالضرورة مشبعة بالعوامل الطبيعية فهي تحقق هذا الشرط ومن ثم تستقر في صميم الجغرافيا، أما الجغرافيا الطبيعية فهي في حد ذاتها ليست دراسة علاقات، ولا تتعرض بالضرورة للإنسان وارتباطه بها، فليس هناك ما يفرض علي الجغرافيا منطقياً دراستها، ومعني هذا أن الجغرافيا تصبح بذلك هي الجغرافيا البشرية فقط، في حين تخرج الجغرافيا الطبيعية خارج نطاق علم الجغرافيا علي الإطلاق [٣].

ويرى حمدان أن استبعاد الجغرافيا الطبيعية لا يمكن أن يكون دعوة جديّة لأن دراسة تلاؤم الإنسان والبيئة تتطلب معرفة هذه البيئة، وأية جغرافية بشرية لا تقوم علي أساس صلب من الجغرافيا الطبيعية جغرافية لا أساس لها.

٣ ـ وكان الانتقاد الثالث هو تساؤل «حمدان»: هل يمنح تعريف العلاقات العلم وحدته التي لا غنى عنها؟؟ فالتنظيم الوحيد الممكن ـ في رأيه ـ لمادة علم العلاقات هو تصنيف مجموعات العلاقات وتأثيرات البيئة علي الإنسان إلى فئات بحسب كل واحد من العوامل الطبيعية، فيكون هناك فصل لتأثير المناخ علي الإنسان، وآخر لتأثير التضاريس وهكذا، ولكن في كل هذه الفئات لا يوجد أساس لتنظيم موحد لكل أنواع

(١) السابق ـ ص ٣١.

(٢) السابق ـ المكان نفسه.

(٣) السابق ـ المكان نفسه.

العلاقات المختلفة، ولذا لا يمكن لهذه الفئات أن تتميز بوجود وحدة فيما بينها، فضلاً عن أن هذا التنظيم قد يتمخض عن موسوعات «كتالوجية ضخمة»، بل ويؤدي إلى تشتت العلم [١].

٤ ـ أما الانتقاد الرابع فكان تساؤل «حمدان» أيضا: هل يمنح التعريف الإيكولوجى للجغرافيا تفردها وكيانها المستقل عن غيرها من العلوم؟؟ ففي اعتقاده أن كل العلوم الأولية التي تدرس الإنسان لابد أن تقيم علاقتها مع طبيعة سطح الأرض إذا أرادت إدراك وفهم الأحوال الاجتماعية المختلفة للأماكن المختلفة، كعلم التاريخ الذي يتحتم عليه دراسة العوامل الطبيعية لتفهم بعض حوادثه المختلفة المنفردة، وعلم الاجتماع الذي لا يمكنه تجاهل البيئة التي يقع فيها المجتمع، فدراسة العلاقات الإيكولوجية لا يمكن أن تكون حكراً لعلم، وهذه النظرة الإيكولوجية إلى الجغرافيا ـ في رأي حمدان ـ هي التي أدت إلى اعتبارها في الدوائر العلمية الخارجية طفيلية فضولية لا كيان لها ولا استقلال [٢].

والخلاصة ـ كما خلص حمدان ـ أن علماً مستقلاً لا يمكن أن يتخذ موضوعه مجرد علاقات سببية، لكنه ينبغي أن يعين لنفسه دائرة معينة من الحقائق يحددها أولاً ثم يسعي بعد هذا التحديد وراء العلاقات السببية، وقد فشلت فكرة الجغرافيا كدراسة للعلاقات في أن توفر للمادة أهدافاً ملموسة كافية، أي بظاهرات محسوسة لدراستها أو بنظام منهجي متميز، والسبب في ذلك ببساطة أن الإيكولوجيا ليست علماً في حد ذاتها بل هي منهج بحث علمي [٣].

### التعريف الرابع: الجغرافيا علم التوزيعات

فالجغرافيا في نظر معتنقي هذا التعريف هي أساس علم التوزيعات الهادف إلى دراسة توزيع الظاهرات المختلفة ـ متصلة أو منفصلة ـ على سطح الأرض، وقد وجه

(١) السابق ـ ص ٣٢.

(٢) السابق ـ المكان نفسه.

(٣) السابق ـ المكان نفسه.

حمدان لهذا التعريف أيضاً ثلاثة انتقادات هي:

١ـ إذا كانت الجغرافيا علم التوزيعات فما حدودها؟؟ فكل شيء علي سطح كوكب الأرض يقع في بالضرورة مكان، أي أن لكل شيء توزيعا، مما يجعل الجغرافيا بحراً لا ساحل له، لأنها تهتم بكل ما علي الأرض وكل ما تحت الشمس، إن هذا التعريف ـ كما يضيف حمدان ـ لا يخبرنا أي الظاهرات يمكن اعتبارها ذات مغزى جغرافي، أي أنه فاقد للأساس الانتخابي للظاهرات، فهل تدرس الجغرافيا إذن توزيع المدارس الأدبية أو توزيع حقوق المصير في العالم!!؟؟ إنه تعريف «أكثر من جامع وأقل من مانع» في ظله تصبح الجغرافيا علم سطحي يهدف إلي معرفة كل شيء عن أيّ شيء [١].

٢ـ إن هذا التعريف لا يعطي للجغرافيا وحدتها، فالتوزيعات تجمع بين ظاهرات متنافرة بين صخور ومياه وهواء وتيارات بحرية ومحاصيل ولغات وأجناس ولغات، والتوزيع في حد ذاته لا يمدنا برباط مشترك من الاهتمام، وفي ظله يفتح الباب علي مصراعيه لاتهام الجغرافيا بأنها مجرد علم مركب وأنها ليست سوى أجزاء من العلوم الأخرى.

٣ـ إن هذا التعريف لا يعطي للجغرافيا استقلالها العلمي لأن التوزيع ليس حكرا للجغرافيا لأنه خاصية للأشياء، تدخله العلوم الأولية في دائرة بحثها وعرضها، فعلماء النبات أو الحشرات أو الجيولوجيا أو الاجتماع في حاجة إلي توزيع ظاهراتهم علي خريطة العالم أو لجزء منه، فالعلوم الأولية وإن تكن قياسية إلا أنها تحتاج إلي استعمال الطريقة التوزيعية الاستقرائية، والعلماء الأصوليون إذا وزعوا ظاهراتهم مكانيا لا يصبحون جغرافيين، ومن ثم فلا العلاقات ولا التوزيع بحكر علي الجغرافيا بل كلاهما مشاع بين كل العلوم [٢].

وبعد هذه الجولة التي قام بها حمدان بين تعريفات علم الجغرافيا المتعددة عاد

(١) السابق ـ ص ٣٤.

(٢) السابق ـ المكان نفسه.

للتساؤل عن ماهية الجغرافية ليقول بأن سفينة الجغرافيا بعد رحلتها الطويلة المضطربة عادت علي أعقابها لتستقر علي تعريف كلاسيكي قديم للجغرافيا قال به «سترابو Strapo (٦٤ ق.م ـ ٢.م): الجغرافيا هي علم الكورولوجيا Chorology أو الكوروجرافيا Chorography اشتقاقاً من الكلمة الإغريقية Chore أي منطقة أو إقليم، والتي لا تعتبر غريبة علي اللغة العربية بعد أن دخلتها عن طريق الفارسية وتعربت في صورة كلمة «كورة» واستخدمت أساساً للتقسيم الإداري لمصر في كثير من فترات العصور الوسطي [١].

وقد بعث «ألفرد هتنر Hittner ١٨٥٩ـ١٩٤١ » هذا التعريف الكورولوجي، ومعني هذا أن قصة الجغرافيا قد تلخصت في كلمة واحدة عودة علي بدء، والتعريف الكُورولوجي يعني أن عمل الجغرافي هو أن يطالع سطح الأرض المتفارق بطبيعته من منطقة إلى أخرى، فيستشف من هذه المطالعة ويتعرّف عن طريقها على كل وحدة تفارقية ذات شخصية متميزة عن سواها فيحددها ويبين محتوياتها ومقومات شخصيتها الإقليمية [٢].

والإقليم ـ كمنطقة متجانسة داخلياً متنافرة خارجياً ـ في رأي «حمدان» يضمن الوحدة الداخلية لعلم الجغرافيا، فلم يعد يهم حسب هذا الرأي عدم تجانس الظاهرات الجغرافية المختلفة العديدة، سواء الطبيعي منها أو البشري، التى يتضمنها الإقليم، كما يضمن أيضاً استقلال علم الجغرافيا؛ لأنه لا يوجد علم آخر يختص بدراسة الأقاليم وتباين سطح الأرض في أقاليم سوى علم الجغرافيا، وإن كان النصف الثاني من القرن العشرين قد شهد ظهور العلم الإقليمي Regional Science الذي اهتم به العديد من الباحثين في العلوم الطبيعية والبشرية .

(١)السابق ـ ص ٣٥.

(٢)محمد علي عمر الفرا ـ اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر ـ نشرة قسم الجغرافيا جامعة الكويت رقم ٤٩ ـ يناير ١٩٨٣ ـ ص ١٣.

وقد كان « وليام بنج» .William Wheeler Bunge Jr» الجغرافي الأمريكي المولود في عام ١٩٢٨ يرى أن الجغرافيا هي: علم المواقع، وأنها تنقسم إلى شقين أحدهما تطبيقي (إقليمي) والثاني تنبؤي (نظري) يجيب الأول منهما عن السؤال: ماذا يوجد في المكان من ظاهرات، بينما يجيب الثاني عن سؤال آخر هو: لماذا يوجد ما يوجد في المكان من هذه الظاهرات.

وقد أصبح هناك إدراك متنام للحاجة إلى منهج متعدد الاختصاصات لدراسة المشكلات الإقليمية، ولكن في ظل استحالة إلمام الباحث بكافة المعارف الخاصة بالإقليم، نتيجة للكم الهائل من المعلومات، وتعقد المسائل المطروحة، حتى لو كان ذلك الإقليم صغيراً، ظهر اتجاه يتمثل في اشتراك مجموعة من الباحثين ذوي الخلفيات المتنوعة والمهارات المتعددة في دراسة مجموعة معينة من المشكلات الإقليمية.

وقد تمثل هذا النوع من المناهج في ظهور حقل دراسي جديد هو «العلم الإقليمي» الذي تزعمه الاقتصادي الأمريكي «والتر إيزارد .Isard,W»، المولود في فيلادلفيا في عام ١٩١٩، في خمسينيات القرن العشرين، عندما تكونت رابطة العلم الإقليمي من مجموعة من الجغرافيين والاقتصاديين والاجتماعيين والمهندسين، كان هدفها تبادل الأفكار ووجهات النظر من أجل تطوير نظريات ومناهج التحليل الإقليمي والدراسات الجغرافية من أجل حل المشكلات الإقليمية. ولتمد الباحثين بقاعدة كمّية وتحليلية للأسئلة الجغرافية، بالتناقض مع الاتجاهات الوصفية لبرامج الجغرافيا التقليدية. فالعلم البيئي من وجهة نظرهم يتضمن الجسم المعرفي الذي يلعب فيه البعد الفراغي دوراً رئيساً، مثل علم الاقتصاد الإقليمي، وإدارة الموارد، ونظرية الموقع، والتخطيط العمراني، والتخطيط الإقليمي، والنقل والمواصلات والجغرافيا البشرية، وتوزيع السكان، وعلم البيئة، وقد أصدر «إيزارد» ومعه ستة باحثين آخرين في عام ١٩٦٠ كتابا عن «وسائل التحليل الإقليمي كمدخل للعلم الإقليمي نشره «معهد

ماساتشوستس للتكنولوجيا» (M.I.T) [١].

والكورولوجيا هنا - كما رأي حمدان - تناظر التاريخ، فوحدة الجغرافيا: الإقليم، ووحدة التاريخ: الفترة الزمنية، وكلاهما يستمد حقائقه اللامتجانسة من العلوم الأخرى، ولكنه يوحّد بينها ويمنحها استقرارها في هذا الإطار المكاني أو الزماني، فلا تنساح الجغرافيا - كعلم التباين الأرضي إلى ما لا نهاية، لأن الجغرافيين الإقليميين ينتخبون الظاهرات التى تسهم في تحديد الشخصية الإقليمية، هكذا تتحدد العناصر التى تُدرس في الإقليم، ولاشك أن تركيب هذه العناصر المختلفة علي بعضها البعض لتكوّن الإقليم عملية صعبة معقدة، ولكن ذلك لا يمنع من الاعتراف بأن الإقليم هو «قلب الجغرافيا» ويجب أن يسود في جميع مراحلها وفروعها [٢].

وكان أهم ما ميّز الجيل الرابع من الجغرافيين المصريين - جيل منتصف القرن العشرين - في رأي «حمدان» أنه انتقل بالجغرافيا نهائياً من التعريف الإيكولوجي الذي خضرم في مصر وسبب انحرافات كثيرة في توجيه النشاط والاهتمام بالجغرافيا العربية الي التعريف «الجديد» في ذلك الوقت وهو ستينيات القرن العشرين، والذي عرفه الخارج منذ عقود قبلها، وأدي إلى استقرار العلم واستقلاله وفعاليته، ألا وهو التعريف «الكورولوجي [٣].

فالإطار الجغرافي السليم - في رأي حمدان - هو إخضاع المادة الجغرافية للمنهج الإقليمي، فأصالة الجغرافيا فلسفة ومنهج ومجال، وتتمثل الفلسفة في تلك النظرة الكلية العامة إلي المادة وهدفها وطبيعتها، أما المنهج فيتمثل في طرق البحث وأساليبه، بينما يتحدد المجال في دائرة اهتمام العلم ومجال نشاطه موضوعيا أو إقليميا [٤].

---

(١) Isard,W. ,Methods of Regional Analysis: An Introduction to Regional Science, The M.I.T. Press, Cambridge,Massachutetes,1960

(٢) جمال حمدان - هذه الجغرافيا - مرجع سبق ذكره - ص ٣٦.

(٣) جمال حمدان - نحو مدرسة عربية في الجغرافية- مرآة العلوم الاجتماعية - العدد الأول - ديسمبر - ١٩٦٤ - ص١٨ .

(٤) جمال حمدان - هذه الجغرافيا - مرجع سبق ذكره - المكان نفسه.